علاج الاضطرابات النفسية
بمنهج لتحليل النفسي

الدكتور
عبد الرحمن محمد عيسوي
أستاذ علم النفس بكلية الاداب
جامعة الاسكندرية

علاج الاضطرابات النفسية بمنهج

التحليل النفسي

مفهوم التحليل النفسى:

يشير التحليل النفسي Psychoanalysis إلي مذهب أو فلسفة وضعها سيجمند فرويد S. Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) عالم النفس النمسوي الشهير، ولقد خضع هذا المذهب لكثير من التعديلات والتنقيحات من قبل زملائه وخصومه أيضاً. ويقوم هذا المذهب علي أساس افتراض وجود اللاشعور أو الكشف عن اللاشعور Unconscious Motivation وعلي أساس من افتراض وجود صراعات لا شعورية Conflicts تدور رحاها في أعماق النفس، وكذلك علي أساس افتراض الرمزية في تعبير الأحلام عن صراعات الفرد، وكذلك في رمزية الأعراض التي يعاني منها المريض Symbolism التحليل النفسي في أمريكا يختلف كثيرا عنه في النمسا. ويطلق علي المفاهيم المتباينة عن تلك التي ذهب إليها فرويد اصطلاح مدرسة التحليل النفسي الجديدة neo - Psychaalysis وقد يشار إلي هذا المذهب أيضا باصطلاح علم نفس العمق Beapth Psychoanlysis ويؤكد هذا المصطلح أيضا فكرة اللاشعور، ويشمل بذلك علم النفس التحليلي analytical psychology وعلم النفس الفردي individual psychology وكذلك مصطلح علم النفس الديناميي Dynamic Psychology مشيرا إلي الاهتمام بالدوافع المحركة لسلوك الإنسان سواء أكانت دوافع شعورية أو لا شعورية وإلي وجود حركة دائبة من التفاعل بين قوي الإنسان وعلي التطور والتغير السريع.

الكبت Repression وجدير بالملاحظة أن المحلل النفسي Psychoanalyst يتعين أن يكون مؤهلا تأهيلا علميا ومهنيا عميقا وواسعا وأن يكون ملما بالأمراض النفسية والعقلية والسيكوسوماتية والانحرافات الاخلاقية وبمناهج العلاج النفسي وبتكوين الشخصية ونموها ومعرفة أسباب نشأة الأمراض النفسية، ويحتاج إلي درجة كبيرة من التدريب المهني حتي يتمكن من آداء المعالجة بالشكل[٤] المناسب ومن هنا كان التحليل النفسي مكلفا، ويستغرق وقتا طويلا[٥].

ففي عملية التداعي الحر يذكر المريض كل فكرة أو أحساس أو شعور أو رغبة تأتي إلي عقله، مهما كانت تافهة أو سخيفة أوصادمة أو شاذة وقد يساعده المحلل بتوجيه بعض الأسئلة إليه كأن يرجع به إلي ذكريات الطفولة الباكرة حتي يكشف عن الأمور والذكريات ذات المعني والدلالة في نشأة حالته المرضية أو تلك الخبرات المريرة أو الصدمات التي أثرت في نفسه، ولكن كان النسيان قد طواها[٦]. كأن يكون قد تعرض في صغره لتجربة كاد فيها يموت غرقا، أو تجربة تعرض فيها للأختناق أو الاعتداء عليه جنسيا. ومن خلال عملية التفريغ abreaction يتم إزالة العقد النفسية والأزمات والترترات والصراعات الانفعالية تلك الناجمة عن الكبت Repression عن طريق إعادة إحياء الذكريات أو استرجاعها أو معايشة المواقف السابقة سواء في الشعور أو السلوك أو حتي مجرد الخيال، الموقف الذي سبق أن مر به الإنسان وسبب له الصراع.

عملية التطهير الانفعالى أو التصريف الانفعالى:

ويرادف هذا المصطلح مصطلحا آخر هو الفضفضة Catharsis ويعني الراحة من التوتر الانفعالي عن طريق الحديث عن الموقف الاصلي الذي تسبب في التوتر.

ويجدر بالمعالج، وفقا للمنهج التحليلي، أن يحاط علما بطبيعة حيل الدفاع اللاشعورية، هي تلك العمليات التي تقوم بها الذات الوسطي في الانسان Ego بغية حماية الذات من مشاعر القلق الشديد والتوتر، ولحفظ توازنه، من هذه الحيل الدفاعية الكبت وهو عملية نسيان لا شعورية أو ترسيب للذكريات المؤلمة Repression وهي حيلة دفاعية لا شعورية Defense mechansim بمعني إزاحة الذكريات المزعجة من حيز الشعور والوعي إلي حيز اللاشعور. ومن ذلك إزاحة المشاعر المرتبطة في ذهن الطفل بعقدة أوديب Oedipus Complex حيث يكبت الطفل خيالاته وأوهامه المحرمة أو العدوانية تجاه الأب، يكبتها ويحبسها في اللاشعور. ولكن نسيان هذه الذكريات أو كبتها لا يعني موتها، فهي حية تؤثر في صحة الإنسان علي المستوي اللاشعوري، فضلا عن أنها في حالة دائبة من محاولة الإفلات والخروج من معقلها إلي الوعي والشعور في حين تحاول الذات ضبطها والسيطرة عليها وعدم خروجها. في أثناء جلسات العلاج، حيث يسترخي المريض ويطلق العنان لذكرياته، كي تفيض وتطفو فوق سطح الشعور، بينما يكون المعالج واقفا خلف المريض الذي يطلق العنان لذكرياته، كي تفيض وتطفو فوق سطح الشعور، بينما يكون المعالج واقفا خلف رأسه مستمعاً. لا يسير هذا

الفيضان من الذكريات دون عقبات، فقد يحدث انسداد في مجري هذا الفكر ويتوقف المريض عن السرد أو الكلام أو الإفصاح عن مكنونات ذاته، وذلك بطريقة لا شعورية وفقاً لما أسماه فرويد المقاومة Resistance وهي عملية لا شعورية تسبب انسداد في سريان مجري الذكريات والتداعيات، وتظهر في أشكال مختلفة، منها رفض المريض الحديث، أو تغيير موضوع الحديث، أو ذكر حقائق واقعية بعيدة عن ذكرياته، أو رفض حضور جلسات العلاج كلية أو رفض تفسيرات المعالج[1].

مقاومة المريض للإفصاح عن ذاته:

فالمقاومة تعوق عملية التداعي الحر وبالتالي تعوق العلاج. فقد يقول المريض: ليس لدي أي شئ أقوله لك. ذهني فارغ الآن.

في مجري عملية العلاج النفسي، وفي ثنايا محاولة تحرير المريض من آلامه والكشف عن صراعاته النسية، قد يحول المريض مشاعره أو رغباته أو ميوله واتجاهاته ودوافعه السابقة، يحولها من موضوعها الأصلي إلي شخص المعالج نفسه. وتعرف هذه المرحلة من مراحل العلاج بالتحويل Trans-ference وهي عبارة عن مشاعر قوية تجاه المعالج، كانت أصلا مشاعره في طفولته مثلا نحو أمه أو أبيه أو شقيقه الأكبر. تتحول الآن إلي شخص المعالج. وقد تكون هذه المشاعر إيجابية كأن ينقل إليه حبه لوالده مثلا وقد تكون سالبة،

كأن ينقل إليه مشاعر العدوان والكراهية ويتصور أنه سبب كل «مأساته» ولهذا التحويل أهمية في مسار عملية العلاج، ذلك لأنه يضع يد المعالج علي المفاتيح أو الرموز أو المعاني أو المشاكل التي عاني منها المريض، ومن ثم يمكن التعامل معها، وإعادة فهمها فهما موضوعيا. ويختلف الموقف الآن في مجري العلاج عن الموقف الأصلي الذي حدثت في ثناياه الخبرة. إذا كان الطفل عدوانيا تجاه الأب، فإن الأب كان يقابل ذلك بالثأر أو بالعدوان أو بكراهية الطفل. أما الآن فإن المعالج لا يقابل العدوان بالعدوان وإنما بالتفاهم والموضوعية، ولذلك يشعر المريض بهذا الاختلاف، ويدرك حقيقة مشاعره، وكيف كانت خاطئة. وفي مجري المعالجة يشرح المعالج للمريض حقيقة مشاعره، وأنه ليس هو المقصود. وفي ضوء جو التفاهم والتعاطف والتسامح يشفي المريض ويتخلص من مشكلة التحويل.

حيل الدفاع اللاشعورية:

وجدير بالإشارة إلي مضمون فكرة الدراما التي تدور فصولها في أعماق اللاشعور، وأعني بها تلك الحيل الدفاعية اللاشعورية أو تلك العمليات العقلية اللاشعورية، فهي لا تقتصر علي الكبت والتحويل، وإنما هناك مجموعة منها تقوم بها الذات الوسطي لحماية صاحبها من القلق الشديد. من ذلك التبرير Rationalization التعويض Compensation الإسقاط Projection التقمص Identificationالتسامي Sublimation العدوان Aggression الإنكار Denial الإبطال Undoing حيلة العنب الحامضThe Sour grapes.

التبرير يشير إلي عملية اختراع أسباب وهمية لتحل محل الأسباب الحقيقية لسلوك ما. والتعويض يدفع صاحبه للإتيان بأعمال تعوض أو تغطي مناحي النقص لديه، الاسقاط يعني إسناد الانسان لصفاته غير المقبولة لغيره، ويشير التقمص إلي توحد الانسان مع غيره من الاشخاص أو الفلسفات أو المذاهب واعتناق نفس القيم والمبادئ، والإعلاء يفيد إعلاء دوافع الإنسان، وتحويل طاقته من مجالات العبث إلي المجالات المفيدة له ولمجتمعه، كإعلاء الدافع للعدوان نحو مناشط إيجابية رياضية أو غيرها مما يمتص فائض طاقة الإنسان في وجوه الخير. الإنكار يفيد رفض الانسان قبول موقف سئ أو يرفض إدراكه كلية، أو يدعي أن شيئاً معينا قليل الأهمية أو غير موجود أو أنه لا يضره في شئ. فالشخص الحزين مثلا يدعي أنه ليس كذلك. والإبطال يسعي فيه الانسان، علي المستوي اللاشعوري إلي الغاء حالة داخلية عنده. فالزوجة التي لا تحب زوجها، تحاول أن تلغي هذا الشعور، بأن تكثر من غسيل ملابسه اعتقادا منها أنها قد لوثتها.

دور التنويم المغناطيسى فى عملية العلاج:

لقد استعان فرويد في بداية ممارسته للتحليل النفسي، وهو بصدد علاج بعض السيدات المصابات بعصاب الهستيريا hysterical cases استعان بالتنويم المغناطيسي hypnosis وهو حالة تشبه النوم، حيث يدخل المريض في حالة من النعاس أو الغفوة Trance في هذه الأثناء يقل وعي المريض ومقاومته وضميره، فلا يخجل من ذكر بعض الذكريات المحرجة، وفي أثناء التنويم المغناطيسي يصبح المريض أكثر قابلية وتأثراً بالإيحاء الذي يتلقاه

من المعالج وينفذ ما يطلب منه responsive to suggestions وقد يتذكر ذكريات منسية بعيدة المدي. وبعد فترة من استخدام التنويم المغناطيسي، للمساعدة في علاج حالات الهستيريا من السيدات، كف فرويد عن استخدام التنويم المغناطيسي كأداة مساعدة في العلاج وذلك لأنه استشعر أن هناك بعض الأشخاص الذين يرفضون النوم، ولاحظ أنه منهج طويل وعمل ووجد أن مرضاه من السهل عليهم ممارسة التداعي الحر بدونه.

استخدام احلام المريض للكشف عن صراعاته:

عدل فرويد عن استخدام التنويم المغناطيسي واهتم بما يعرف بمنهج تحليل الاحلام أو تفسير احلام المريض، لعله يكتشف من ثناياها المشكلة التي سببت اصابة المريض بالاعراض Dream interpretation من حيث التعرف علي محتوي الحلم الظاهر وهو احداثه كما تبدو في سلسلة متلاحقة من الصور الذهنية: فيلم من الصور الذهنية، ثم التعرف علي المحتوي الباطن أو الخفي أو المستتر للحلم وهو معناه وما يرمز إليه علي اعتبار أن الأحلام قد تكون تحقيقا لرغبات مكبوتة أو دوافع محبطة. فالمرأة العانس قد تحلم بإقبال الرجال عليها أو محاولة اغتصابها. وتعبر الاحلام عن محتوي اللاشعور وعما يعتمل بداخله من صراعات. ولذلك قيل في حق الأحلام أنها الطريق الملكي المؤدي إلي كشف مكنونات اللاشعور. *The royal road to the unconscious*

إعادة تكيف الفرد:

تنتهي عملية العلاج بتحقيق استبصار المريض insight بحالته أي

فهمها فهما موضوعيا وواقعيا، مع تقديره لحالته العقلية والتعرف علي مبلغ لا عقلانية دوافعه أو براعته السابقة irrationality .

وهكذا أسهمت حركة التحليل النفسي في تطوير علاج الأمراض النفسية والعقلية. ومعروف أن العلاج النفسي Psychoherapy يستهدف إعادة الإنسان إلي حياة التكيف الجيدWell- adjustment وتحريره من الأعراض والآلام والتوترات والصراعات والعقد التي يعاني منها وذلك عن طريق تقديم المعالجات المختلفة للمرضي وإزالة شكاوي المريض، عن طريق تغيير أفكار المريض، ومشاعره، وسلوكه، وبالطبع هناك مناهج متعددة في الوقت الحاضر تستخدم في العلاج من بينها منهج العلاج عن طريق التحليل النفسي.

المبادئ العامة في التحليلية:

العلاج بالتحليل النفسي جزء من البناء التحليلي الواسع القائم علي إعتناق عدد من المبادئ المعروفة، منها الاهتمام البالغ بمرحلة الطفولة الباكرة، والتركيز عليها وعلي ما تضمنته خبرات مر بها الطفل، والتأكيد علي تأثيرها في نشأة الامراض النفسية، وخاصة السنوات الخمس الأولي من حياة الطفل. ومن مبادئ التحليلية كذلك القول بوجود الدوافع والصراعات اللاشعورية وادعاء تأثير المادة اللاشعورية في السلوك، وفي النمو وفي الشخصية وذلك استناداً إلي ملاحظات تدل علي وجود مادة لا شعورية من ذلك أعراض الأمراض النفسية، والأحلام، وفلتات اللسان، وزلات القلم، والعمليات العقلية اللاشعورية الدفاعية. فالسلوك لا يرجع فقط إلي عوامل

شعورية يعيها الانسان ويدركها ويسلم بها ويعترف بها، وإنما يرجع أيضا إلي عوامل لا شعورية أي لا يشعر بها ولا يدركها، وفي ذلك إضافة لفهمنا عن السلوك وأسبابه، من بين مبادئ التحليلية كذلك التركيز علي العامل الجنسي في حياة الإنسان وفي سلوكه. ولكن فرويد استخدم لفظ الجنس بمعني أوسع من مجرد التناسل، إذ يشتمل عنده كل لذة حسية. ولقد قال فرويد بفكرة جمود أو توقف نمو الكائن البشري عند مرحلة من مراحل النمو والعجز عن تخطيها وهنا تظهر المشكلات المرضية. كذلك نادت التحليلية بما يعرف باسم الحتمية السيكولوجية Psychological determinism.

ومؤدي هذه النظرية أن لكل معلولة علة، أو لكل سبب نتيجة، وعلي ذلك فإن أي سلوك أو أية ظاهرة نفسية، لابد وأن يكون لها أسباب شعورية أو لا شعورية، ولا يمكن أن تحدث دون أسباب.. فهناك مقدمات تؤدي إلي نتائج، ولا يمكن أن يصدر السلوك دون أن تكمن ورائه أسبابه. ولقد شجع هذا المذهب علماء النفس للبحث عن أسباب للظواهر، وهذه الأسباب تكمن إما في الحياة الشعورية وإما العوامل اللاشعورية فالتحليلية ركزت علي العوامل النفسية بدلا من التركيز علي العوامل الفسيولوجية، وكذلك ركزت علي ماضي الإنسان وعلي ذكرياته وعلي لا شعوره. ونظرت للعقل الانساني نظرة خاصة، فرأت أنه يتكون من عناصر ثلاثة هي الذات الدنيا id وهي مستودع النزعات الشهوانية والعدوانية والحيوانية، وتسعي لتحقيق اللذة. وهناك الذات الوسطي ego وتسير وفقا للمنطق وللواقع وتراعي مطالب المجتمع وقيمه ومثله، وتتوسط بين نزعات الذات الدنيا وبين مطالب المجتمع وتوقعاته من الفرد. واخيرا الذات العليا Superego وهي مستودع القيم

والمثل الأخلاقية والمثالية وهي بمثابة الضمير الأخلاقي الذات الوسطي تمثل الجوانب العقلانية في الشخصية الإنسانية. والذات العليا هي الجزء الاخلاقي من هذه الشخصية وعلي بـ مراقبة الذات الوسطي، وتضمن أن الإنسان يطيع نداء ضميره الاخلاقي Conscience أما عن طبيعة العلاقة القائمة بين هذه العناصر الثلاثة في الشخصية، فهي علاقة تفاعل أي تأثير متبادل. والوضع المثالي ألا تشتط واحدة منها علي حساب الآخريات، وإنما المفروض في حالة السواء، أن تنهض بينها علاقة وئام وانسجام ليعيش الانسان في السلام مع ذاته.

النقد الموجه للتحليلية:

هذه صورة عابرة عن منهج العلاج بالتحليل النفسي وركائزه التي قال بها سيجنمد فرويد، ولكن رغم فائدة هذه النظرية في العلاج، وتوجيه الأنظار نحو الأسباب النفسية لنشأة المرض، وكذلك توجيه الأنظار نحو دوافع وأسباب لا شعورية، إلا أن هناك انتقادات كثيرة وعنيفة وجهت ومازالت توجه إلي هذه النظرية، من ذلك مبالغتها في التركيز علي خبرات الطفولة وماضي المريض دون التركيز علي حاضره والعوامل الراهنة التي يتعرض لها في الكبر والمؤثرات المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأسرية والتربوية التي تؤثر بالقطع فيه وما يتعرض له من الأزمات والكوارث والصدمات في سن الكبر.

كذلك يعاب علي التحليلية المبالغة غير المقبولة في اعطاء أهمية لعامل الجنس وتأثيره في الشخصية وفي السلوك. ونحن لا ننكر الدافع الجنسي، ولكن ليس هو العامل المؤثر الوحيد في حياة الإنسان، هناك

أفكاره وميوله واتجاهاته وعقائده وظروفه الأسرية وقدراته وذكاؤه وما إلي ذلك وكلها تلعب دوراً في تكيف الفرد أو عدم تكيفه.

كذلك ركزت التحليلية علي المؤثرات أو الصراعات أو الدوافع اللاشعورية أي المنسية أو المكبوتة، في حين أغفلت تلك العوامل التي يشعر بها الفرد ويدركها ويعترف بها ولم يطوها النسيان.

يضاف إلي ذلك انتقادات منهجية، تتمثل في أن فرويد توصل إلي آرائه هذه في بناء الشخصية وتفسير السلوك ونشأة الامراض النفسية من تعامله مع عينات مرضية وبالتحديد السيدات اللاتي كن يعانين من مرض الهستيريا. وكان ذلك في عصره وفي مجتمعه وكن من الطبقة الاجتماعية الوسطي. وما يستمد من المرضي والشواذ، يصعب تطبيقه علي الاسوياء، وهم السواد الأعظم من الناس، كذلك فإن فروضه غيبية و وهمية لا يمكن إخضاعها للتجريب والملاحظة وبقية تقنيات المنهج العلمي، فلا توجد عينات مثلة، للمجتمع الأصلي، ولا يمكن إخضاع هذه الآراء للقياس الكمي الموضوعي، كيف نتحقق من وجود الذات الدنيا والوسطي والعليا مثلا في داخل الانسان؟ لقد انبثقت الآراء التحليلية من خلال ملاحظات اكلينيكية علاجية ولم تستمد من دراسات تجريبية(٨) تضبط فيها كافة العوامل والمتغيرات ومن ثم يمكن تعميم نتائجها. ولقد شككت التحليلية في كثير من القيم الإنسانية النبيلة، كعاطفة الأبوة والأمومة، وعاطفة الحب، وادعت أن الحب يكمن وراء كره، وأن حب الطفل الرضيع لأمه نشوبه نزوات جنسية لدي الرضيع، ورغبة عدوانية تجاه الأب، والرغبة في إقصاء الأب أو حتي

موته باعتباره منافسا قويا للطفل يشارك حب أمه. وهذه آراء متشائمة قاتمة تلقي بظلال من الشك علي الطبيعة الإنسانية الخيرة وعلي قيم إنسانية نبيلة.

كذلك أسرفت التحليلية في الاعتماد علي الرمزية، فكل شئ ذي فتحه يرمز إلي الفرج مثلا وهي أمور لا يساندها الواقع التجريبي العلمي.

وحتي القول بعقدة أوديب وعقدة الكترا، ما هي إلا محاولة من فرويد للغوص في أعماق الخرافة والأساطير واستخراج من حالات مرضية من ثناياها. فأوديب أسطورة يونانية أشارت إلي ضرب من الشذوذ، وجسدها فرويد ونسج حولها بخياله قصة وأراد تطبيقها مع إنسان اليوم.

وهكذا، وإن كان فرويد قد نجح في عرض منهج يصلح للعلاج، إلا أنه لم يقدم نظرية في الشخصية الإنسانية يمكن أن تخضع للمحك العلمي التجريبي وأن تصمد أمام محكات العلم.

المراجـع

(1) English, H. B., and English, A. C. A Comprehensive Dictionary of psychological and psychoanalytical terms p. 418, Longmans. London, 1958 .

(٢) عبد الرحمن العيسوي، العلاج النفسي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦ .

(٣) عبد الرحمن العيسوي، قاموس مصطلحات علم النفس الحديث والتربية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٦ .

(٤) عبد الرحمن العيسوي، الارشاد النفسي، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية، ١٩٨٥ .

(5) Gallatin, J., Abnormal psychology, Macmillan, New York, 1982, P. 35 P. 35 .

(٦) عبد الرحمن العيسوي، علم النفس الطبي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٩ .

(٧) عبد الرحمن العيسوي، باثولوجيا النفس، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية، ١٩٨٩ .

(٨) عبد الرحمن العيسوي، القياس والتجريب في علم النفس والتربية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦ .

(٩) عبد الرحمن العيسوي، تطور الفكر الانساني وتاريخ علم النفس، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية.